علم اجتماع زيارة الأربعين... المفهوم والإطار العام: البناء والتبيئة

د. مريم رضا خليل

الجامعة الاسلامية، كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية

/لبنان

maryam_rida1122@hotmail.com

ملخص البحث

يقدّم البحث صياغة موجزة لعلم اجتماع الأربعين تشتمل على أمّات أصول العلم، وأبرز المعالم والمحطّات التي تسهم في عملية البناء. ويحاول تأصيل العلم ورسم إطاره النظري العام انطلاقًا من خصوصيات الزيارة. وؤمّن تبيئة نشأة العلم بطريقة سويّة لا تقارب الإسقاطات، وتجتنب معها النتائج الهجينة. وتكمن أهمية البحث في عملية البدء ببناء هيكل العلم الجديد والانتقال بعلم اجتماع الزيارة من مرحلة الطرح اللفظي الشفهي إلى التخطيط الفعلي، ولو بأولى مستويات التنظير؛ بما يتعيّن معها المسار العلمي الذي يؤمّن عملية بلورة العلم الجديد، وصقل مفهوماته ونظرياته، ومن ثمّ الانطلاق الميداني. ولا بد من تأكيد أنّ ما يقدّمه البحث هو بمنزلة الإرهاصات الأولى لما يمكن أن يكون عليه علم اجتماع الأربعين، وهي قابلة للتطوير، وتفتح بطريقة ممنهجة وعلميّة عددًا من الأبواب البحثيّة التي تفضي إلى تكامل نشأة العلم، ولا سيّما أن البحث يكشف خلال الطرح مجموعة من التحدّيات والإشكالات التي تحثّ الباحثين على الدفع بالعلم قُدمًا.

الكلمات المفتاحية: زيارة الأربعين ، علم الزيارة الأربعينية؛ علم اجتماع زيارة الأربعين، إشكاليات علم اجتماع الزيارة.

"Sociology of Ziyart AL-Arbaeen: Concept and General Framework - Structure and Analysis

Dr. Maryam Reda Khalil Islamic
University, Faculty of Political Science and International Relations, Beirut, Lebanon

Abstract

The paper presents a brief formulation of "Sociology of Ziyarat Arbaeen" that includes its main foundations and the most prominent landmarks and stations contributing to the construction process. It tries to draw its general framework based on the specifics of religion, culture, intellectual and identities. This environment ensures the emergence of science away from projections, avoiding hybrid results. The importance of the research lies in developing this science even at its first level, determining the scientific path that secures the processed science and refines its concepts and theories. It must be emphasized that what the research presents is like the first precursors of what the "Sociology of Ziyarat Arbaeen" can be, and it is capable of development. It reveals a set of scientific problems, thus pushing the process forward.

Keywords:Ziyart AL- Arbaeen، Ziyart AL- Arbaeen Science، Sociology of Ziyart AL- Arbaeen،Challenges of Ziyart AL- Arbaeen.

مجلة علمية محكمة نصف سنوية
www.arbnj.com
شعبان - ١٤٤٥هـ آذار - ٢٠٢٤م

مقدمة

يعدّ البناء من أصعب العمليات في مسيرة المجتمع الإنساني وتطوّره، ولعلّها العملية الأصعب لما تكتنزه من عمليات متفرّعة في التنمية والتنشئة والتربية؛ وكلٌّ يحتاج إلى الدقة والإتقان بغية إخراج الوليد الجديد إلى النور. وليس أدلّ على أهميتها وخصوصيات مقوّماتها من أنّ الله تعالى أوكل للأنبياء والرسل مهام بناء «الإنسان»، الشخصية السويّة المتّزنة، فسبقت مسؤولية التزكية في القرآن الكريم عملية التعليم التلقيني، وذاك قوله تعالى:﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:٢). وفي مسار ممتدّ، تحتلّ عملية البناء المعرفي حيّزًا من الأهمية والقدسية لموضوعاتها المتعلّقة بالفكر الإنساني، وآثارها في مسيرة تطوّر المجتمع. وفي حين أنّ زيارة الأربعين تشكّل عالمًا معرفيًّا غنيًّا لا يصح معه حصرها بوصف «الظاهرة» _وهي المترَفة بالظواهر_ يصبح التحدّي ماثلًا أمام العلماء والمفكرين والباحثين والمؤسسات الدينية والعلمية والتربوية للنهل من علوم هذه «الظاهرة الفريدة» بكل دلالاتها ومدلولاتها.

وبناء عليه، تحاول هذه الورقة الإطلالة على الزيارة الأربعينية بحثًا عن مفاعيلها في بناء المجتمع الإنساني على نحو عام، والمجتمع الإسلامي على نحو خاص، بما يسهم في الكشف عن دورها في دينامية حركة الفكر الإسلامي، وتوليد الطاقات وإنضاج القابليات في مسيرة تطوّر المجتمع الإنساني، أي المجتمع القيمي الأخلاقي الإيماني الذي يمهّد لدولة العدل المنتَظرة. ويتمحور إشكال البحث حول إمكان استحداث علم اجتماع الزيارة الأربعينية والتأصيل له من جوهر الزيارة

ذاتها. وتنطلق من السؤال الأساس: «ما هو علم اجتماع زيارة الأربعين؟». وعليه، تفترض الورقة بالمستوى الأول أن الزيارة بحد ذاتها عملية ديناميكية تفاعلية فيها مخزون هائل من الارتباطات الاجتماعية والعلاقات والنسائج التي تتفاعل أفقيًّا وعموديًّا دونما حصر في الحدود الجغرافية، وتقبل الدراسة كمًّا ونوعًا. الأمر الذي يجعل الزيارة أرضًا خصبة لانطلاق علم الاجتماع الخاص بها، فهي تحمل من الأبعاد والرؤى والغنى العقدي والمعرفي والروحي والنفسي والطاقات المادية والمعنوية الكثير مما يحتاجه بناء المجتمع الإنساني الإلهي. وإن هذه الثروات الكامنة والموجودة بالفعل ترفع مستوى المسؤولية على عاتق الباحثين والمهتمّين من أهل العلم والدين، أفرادًا ومؤسسات، أثناء عملية رفع أسس علم اجتماع الزيارة لاجتناب عمليات الاستلاب والتغريب من العلوم الأخرى قدر الإمكان.

وتسعى الورقة للإجابة عبر الحفر على وضع اللبنات الأولى للعلم المستحدَث_ الأمر الذي يفسّر قلة المصادر والمراجع المعتمَدة_ ومحاولة رسم الإطار النظري العام للتصورات النظرية الخاصة به بما يؤسّس للماهية والمفهوم والمعنى والمجالات والنشأة ومراحل التطوّر. وإذ ينطلق البحث من علم الاجتماع العام إلا أنه يحافظ على تبيئة عملية البناء _ ما يسهم أيضًا في تعليل قلة المصادر_ ويطرح الإشكالات التي تفتح الباب على مصراعيه للمزيد من عملية الحفر العلمي والمنهجي؛ فالحاجة تتأكد يومًا بعد يوم لضرورة النهوض بالاجتماع الإسلامي في مسيرة ﴿اقرأ﴾ (العلق: ١).

مفهوم علم اجتماع زيارة الأربعين

إن محاولة تأصيل علم اجتماع زيارة الأربعين يتطلّب تحديد مفهوم الزيارة من زاوية علم الاجتماع بما يقتضي أن يتجاوز معه مجرد المعنى اللغوي للزيارة أو ما يتعلّق بها من قرينة زمنية تحصرها بالسرد الروائي أو التاريخي للأحداث.

مفهوم علم الاجتماع

يتّسم علم الاجتماع بالسعة والشمول بالتناسب مع خصوصية موضوع الاختصاص على تنوّع الحقول والمجالات التي تنتمي إلى هذا الفرع من العلوم الإنسانية. ويعرّف علم الاجتماع بأنه دراسة المجموعات وتفاعلاتها، والمجتمعات وتفاعلاتها، سواء كانت مجموعات صغيرة وشخصية أو كبيرة جدا. وهو يدرس كل جوانب المجتمع ومستوياته (Stax, 2017, p. 6).

ويكتسب مزاياه من المجتمع الإنساني، الذي يتناوله بالدراسة والبحث والتحليل. وعليه، يمكن تعريف علم الاجتماع بأنّه علم الإنسان الاجتماعي والنسق الاجتماعي والمجتمع كليًّا، يدرس العلاقات الاجتماعية والظواهر والنظم والأنماط التفاعلية بطريقة علمية منهجية، ويهدف إلى فهم الوظائف القائمة والكشف عن القوانين الحاكمة في المجتمع.

ولما كان الإنسان المخلوق يمثّل محور الحياة والوجود، بدءًا واستمرارًا، فإنه يمتاز بخصائص تكوينية نفسية وجسدية، فردية واجتماعية، تجعل منه عالمًا بحد ذاته. وفي حين يمثّل الإنسان نواة المجتمع، فإن الغنى التفاعلي الداخلي يرشح على الخارج، بما يؤمّن معه مساحات واسعة من العلاقات والعمليات التفاعلية والوقائع والأحداث القابلة للدراسة والبحث بشأنها، وزيادة العلوم والمعرفة من خلالها.

من هنا، يمكن فهم السعة والشمول وتعدّد المستويات في توزّع تصانيف أو فروع هذا العلم. فهو يغطي مروحة متنوّعة من الاختصاصات، أبرزها: علم اجتماع الثقافة، وعلم اجتماع الأدب، وعلم الاجتماع الاقتصادي،وعلم اجتماع المعرفة، وعلم الاجتماع التربوي؛ وعلم الاجتماع الحضري، وعلم الاجتماع الريفي، وعلم اجتماع البيئة؛ وعلم الاجتماع الطبي، وعلم النفس الاجتماعي؛ وعلم اجتماع الأسرة، وعلم اجتماع الفن، وعلم اجتماع الدين، وغيرها.

وإذ يلاحظ أن الجامع المشترك في هذه التصنيفات هو الفاعل الإنساني المتفاعل في محيطه وبيئته، فإن الميدان الواسع المترامي الأطراف بما يشوبه من عمومية _قد تقضي على العلم ذاته_ دفع بعلماء الاجتماع إلى تحديد ميادينه وتعيين موضوعاته وفق اتجاهات مختلفة (الخشاب، ١٩٧٤، صفحة ٤٧). ويحافظ هؤلاء على اختلاف الاتجاهات والموضوعات على التوافق بأنّ الروابط الاجتماعية في سياق أطر التنشئة الاجتماعية هي اختصاص هذا العلم (بوغام، ٢٠١٢، صفحة ١٨).

يدرس علم الاجتماع المجتمع بطريقة علمية: تحليلية وإحصائية؛ كميّة ونوعية. يتناول بالبحث والتشريح والتحليل والتدقيق والإحصاء ما في المجتمع من مظاهر تفاعلية موجودة في العلاقات والأنماط والبنى والأنظمة والأنساق على اختلاف وحدة التفاعل أو النسق الاجتماعي موضوع الدراسة: ثنائي أو تعددي؛ بسيط أو مركب ومعقّد، كأن يتكوّن من شخصين أو قد يكون نظام دولة أو أمة.

تتم دراسة الظواهر الاجتماعية على مستويات متفاوتة في المجال وزاوية الدراسة والمنظور والمقاربة النظرية والحقل الميداني في الثقافة والمعرفة والعلم والتاريخ والدين، أو القانون والسلطة والحكم، أو القرابة والزواج والعصبية، أو عالَم الاقتصاد والسياسة والجريمة والنفس، وغيرها.

وتعتمد الدراسات التفسيرات الملموسة أو الإعمامات الشاملة للمجتمع والسلوك الاجتماعي، بدءًا من الأحداث المحددة؛ أي المستوى الجزئي لتحليل الأنماط الاجتماعية الصغيرة، (Micro)، وصولًا إلى «الصورة الكبيرة» بمعنى المستوى الكلّي لتحليل الأنماط الاجتماعية الكبيرة (إبراهيم، ٢٠١٠، صفحة ٧٦) (Macro).

مفهوم زيارة الأربعين

إن بناء علم اجتماع الزيارة الأربعينية يدفع باتجاه النظر إلى تعريف الزيارة من خلال علاقة المناسبة بالمحيط سواء المجتمع المحلي أو الزوار الوافدين، والتفاعل الجاري بين مختلف العناصر داخل الدائرة الواحدة المتماثلة لجهة العمل أو القرابة والأسرة والجنسية والهوية واللغة وكذلك بين مختلف الدوائر والعناصر في ما بينها. وعليه، إن مفهوم زيارة الأربعين مفهوم دينامي تفاعلي يعبّر عن حركة تقدمية ترتبط فيها العناصر والعوامل وتتفاعل في مسار تقدمي نتيجة هذه العملية التفاعلية والانعكاسات والتأثيرات المرافقة.

في هذا الإطار، ينسجم معنى الزيارة الأربعينية المنشود مع النظر إليها بوصفها شعيرة من شعائر الله، يتسم من يحييها ويعظمها بتقوى الله وخشيته، وذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج،٣٢). فكانت زيارة الأربعين إحدى علامات المؤمن كما ورد في الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام.

إذًا يعبّر إحياؤها عن عملية بناء مادية ومعنوية في طريق السير نحو التكامل. يتفاعل فيها المخلوق مع نفسه بالدرجة الأولى، ثم تتوسّع دوائر الارتباط والعلاقات لتعمّ مختلف المؤسسات والبنى الاجتماعية؛ الأسرة فالمجتمع المحلي ثم المجتمع

الإنساني. بناء عليه، يعبّر المفهوم عن مسار من التكامل العمودي ما بين الإنسان وخالقه، وآخر أفقي بين الخلق أنفسهم. وإن هذا المسار هو وليد عملية التفاعل بين عناصر بناء المجتمع الإنساني على المستويات كافة؛ الروحية والمعنوية والأخلاقية والسلوكية والاجتماعية والسياسية والفكرية والثقافية والاقتصادية وغيرها.

إنّ هذا التعريف للمفهوم من الزاوية التفاعلية، يؤمن القدرة على توليد العديد من المرتكزات والمباني لمزيد من الفهم المعمّق والأوسع. وفي حين يحتاج إلى عملية صقل وبلورة وفتح نوافذ فكرية مختلفة لجمع العديد من النقاط الحاسمة والمشتركة في الفهم المتنوع لزيارة الأربعين، فإنّه يغني المفهوم، ويوفّر له العديد من الروافد الفكرية.

مفهوم علم زيارة الأربعين

يمكن تعريف علم زيارة الأربعين بأنّه العلم الذي يعنى بدراسة عملية التفاعلات الناجمة خلال الزيارة الأربعينية بين مختلف العناصر المشاركة فيها سواء أكانوا أفرادًا أو مؤسسات أو بنى وغيرها، وذلك على المستويين المادي والمعنوي، وبطريقة منظّمة وممنهجة على وفق القواعد العلميّة القادرة على الوصول إلى المعطيات الأقرب إلى الواقع. إنّ هذه القواعد في المنهج والتحليل وآليات البحث ونوعه تتحدّد بناء على ماهية المفهوم نفسه، وطبيعة الموضوع المراد تناوله بالبحث والدراسة. تقدّم الزيارة بمختلف مراسمها بيانات قابلة للدراسة كمًّا ونوعًا؛ فهناك البيانات القابلة للتحليل الكمّي كخدمات الزوار على تعدّدها وتنوّعها، وعديد الأنشطة ومجالاتها، والأعمال التطوّعية، والخدمات الحيوية من توزيع الطعام والشراب وغيرها، فضلًا عن التحليل النوعي للمظاهر الاجتماعية الغنية الناجمة عن تفاعل صنوف اللغات والجنسيات والثقافات. ويركّز علم زيارة الأربعين على دراسة التأثيرات المتبادلة بين

مختلف عناصر الزيارة؛ من أضيق مستوى في التحليل إلى أوسعه، بما يغطي دراسة العلاقات لدى الشرائح المتنوعة والمستويات المتعدّدة. وتضفي الحدود الواضحة سواء على مستوى الطروحات والموضوعات والميادين والموضوعية والأهداف، أو المتغيرات والعوامل الكميّة والنوعيّة، سمة الاستقلالية على علم الزيارة، وتاليًّا تسهم في البحث حول إمكان النظر في علم اجتماع الزيارة أيضًا بوصفها علما مستقلا.

العلاقة بين علم الزيارة وعلم الاجتماع

إنّ جوهر دراسة علم الاجتماع هو الإنسان في تفاعلاته مع محيطه. يعرّف علم الاجتماع بأنه دراسة المجتمعات الإنسانية: الظواهر المجتمعية؛ والحياة المجتمعية؛ والجماعات والمؤسسات؛ والبنى والهياكل، ويشرح التصرف التفاعلي للإنسان في هذه المجتمعات (Introduction To Sociology, 2017). وفي مقاربة مماثلة، يتمحور موضوع علم الزيارة حول الزائر المتفاعل مع الزيارة وأنشطتها ومختلف المتعلّقات، ونمط الحياة الذي تفرضه، والهوية الثقافية التي تبرزها مع وحدة المقصد والهدف. وعليه، يرتبط علم الزيارة بعلم الاجتماع ارتباطًا وثيقًا محوره الإنسان الفاعل والمتفاعل في آن معًا، ما يجعل الفصل بين العلمين غير ممكن لجهة تداخل موضوعات الدراسة في الجهتين وميادينها.

وتشير عملية المسح السريع لعلم اجتماع الزيارة إلى أن مجموعة الشروط الضرورية التي حدّدها العلماء على نحو عام للعلم المستقل تنطبق على علم اجتماع الزيارة. هذه الشروط الواجب توافرها في أي علم مستقل هي: مجموعة ممتازة من الظواهر تشكّل موضوعات الدراسة والبحث فيه؛ وتطبيق منهج البحث العلمي على هذه الظواهر؛ وإمكان تعميم النتائج مع الوصول إلى قوانين ونظريات خاصة

بهذا العلم (الجوهري، ١٩٨٠، صفحة ٥). تطرح الزيارة الأربعينية كمًّا هائلًا من الظواهر التي تشغل كلٌّ منها حيّزًا خاصًّا في الدراسة والبحث، ومنها الإيجابي والسلبي؛ الخاص بالفرد أو العام المشترك وانعكاساته على العلاقات التفاعلية مع الزائرين والعكس؛ والتفاعل المتبادل من قبيل الأنماط السلوكية والمعيشية وتأثرها بحركة الوافدين من ثقافات مختلفة والحركة العكسية؛ وغيرها من العناوين العامة التي لا سبيل لحصرها في هذه الوريقات. وكذلك يمكن أن تطبّق منهجية البحث العلمي بكل شروطها ومقدماتها وآلياتها بالاستفادة من الغنى المفهومي والعددي في التحليل بشقيه النوعي والكمّي.

علم اجتماع الزيارة وعلم الاجتماع الديني

بناء على ما تقدّم، يطرأ الإشكال التالي: هل يعدّ علم اجتماع الزيارة الأربعينية بمنزلة فرع من علم اجتماع الأديان أو له من الخصائص ما يجعل منه علمًا مستقلًّا بذاته بوصفه فرعا من فروع علم الاجتماع الإسلامي؟ وهذا الإشكال هو محل للدراسة والتأمل في موضعين: الأول يتعلّق بتصنيف علم اجتماع الزيارة، وهو محور الإشكال المطروح؛ والثاني يرتبط بواقع الاجتماع الإسلامي، والتحديات الماثلة أمام الارتقاء به إلى ما يتناسب مع مكانة الدين الإسلامي في سلّم الحضارة الإنسانية.

إن علم الاجتماع الديني هو أحد فروع علم الاجتماع؛ يعرَّف بأنه دراسة المعتقدات والممارسات والأشكال المؤسساتية للدين من خلال استخدام أدوات ومناهج علم الاجتماع. ويهدف إلى فهم دور الدين في المجتمع؛ تحليل دلالاته وتأثيراته في تاريخ الإنسان، وفهم القوى والتأثيرات المجتمعية التي تعيد تشكيل الدين (Swatos, 1998). وعليه، تظهر أهمية علم اجتماع الأديان في دراسة الدين

داخل بنية المجتمع، ومحاولة فهم الظواهر الدينية، ونشأتها وتطورها، واتجاهاتها الفكرية، وانعكاساتها الثقافية، والعوامل المؤثرة فيها. وتعد دراسات علم الاجتماع الديني في الثقافة العربية ضئيلة جدًّا بالمقارنة مع الأعمال الخاصة بتتبّع الظواهر الدينية؛ فهناك فرق شاسع بين دراسة العلم بمادته الخام ودراسة أداوته.

وبناء على المعطيات أعلاه، يتّضح ارتباط الاختصاصين والتداخل ما بينهما. بيد أنه من الممكن التفريق بين علم اجتماع الزيارة، وعلم اجتماع الأديان، يمكن أن يشكّل هذا الفارق ذاته مرتكزًا في الفصل بين العلمين، مع الحاجة إلى المزيد من الدراسات المعمّقة للإجابة عن التموضع الأقرب إلى الحقيقة. إنّ هذا الفارق يبرز في نقطتين دون حصرهما:

الأولى: البعد الإنساني الذي تجسّده رسالة الإمام الحسين في الزيارة الأربعينية؛ البعد الأعم من البعد الديني بمفهومه الضيق في الفكر الغربي، والمأسور بممارسات عبادية خاصة بالمجتمع الذي تنتمي إليه الظاهرة.

والثانية: معنى الدين ومفهومه الوارد في دراسات علم اجتماع الأديان الغربية يختلف عن الرؤية الإسلامية، وتحديدًا الشيعية، لجهة بعض المفهومات الأساسية المرتبطة بالمجتمع وليس الفرد، كمفهومات الولاية والإمامة.

ينجم عن هذا الاختلاف ساحة أخرى مغايرة هي التجربة الدينية وآليات دراستها وتقييمها وفهمها. فالغرب ينظر في التجربة الدينية من باب الأفول خلف المجتمعات الصناعية الحديثة، وتراجع ممارسة الشعائر لصالح العلمنة وتواري المقدّس (باتشي، ٢٠١١، صفحة ١٣). وإن اعتماد هذه المعايير المماثلة ستشوّه المطلب والمطلوب، والمشكلة تكمن في التغاير في فهم أصل الدين ودوره، وتاليًّا، تزداد هوة الفروقات في

المفهومات والمفردات المستخدمة، فمثلًا ندرس «المؤسسة» الدينية أو «الحوزة الدينية»؟ ونستخدم لفظ «رجال الدين» أو «العلماء والفقهاء» في مقاربة الموضوعية؟

إنّ الزيارة الأربعينية تجمّع إنساني وعالمي يتجاوز طابع الطقوس الدينية الخاصة بجماعات معيّنة، وهي تمثّل من زاوية علم الاجتماع ظاهرة إنسانية وليس مجرد ظاهرة دينية إسلامية الهوية، لما تجمعه الزيارة من دلالات على المستوى التربوي والعقدي والسياسي والإعلامي والثقافي. فالزيارة تعدّ أكبر عملية تفاعلية على عدة من مستويات، فهناك الارتباط بين عالمي الغيب والشهود؛ امتداد الماضي والحاضر والمستقبل؛ مفهومات بناء النفس الإنسانية؛ ديناميكيات الثورة الإصلاحية؛ عناصر الهوية العاشورائية في فضائل الوفاء والتضحية والإيثار والبراءة من الظالمين ونصرة الحق مهما غلا الثمن؛ وبناء وعي الأمة والحفاظ على هويتها، وغير ذلك.

وبناء عليه، يرتبط علم الزيارة وعلم الاجتماع من زاوية العلاقات المتبادلة والتفاعل الاجتماعي؛ حيث تشكّل الزيارة الأربعينية مرآة المجتمع على اختلاف الحقول فيه فتعكس كل مكوّناته ومقوّماته الفكرية والثقافية؛ من التقاليد والأعراف والهوية، وعمليات التنشئة الاجتماعية، ومظاهر الاندماج وتعزيز المشتركات ونبذ الاختلافات والفوارق الوضعية. فالظاهرة التي يتمحور حولها علم اجتماع الزيارة، ليست مجرد ظاهرة دينية عادية، وإنما فرضت نفسها عبر التاريخ كظاهرة جماهيرية عالمية ضخمة، لها ثقافتها الخاصة ودلالاتها وآفاقها المميّزة وآثارها الاجتماعية العريضة (الساعدي، ٢٠١٨، صفحة ١٢).

بمعنى آخر، إن علم اجتماع الزيارة له هوية خاصة تستمدّ خصوصيتها من عدة من مشارب: الدين على نحو عام؛ والدين الإسلامي على نحو خاص والمذهب

الشيعي تحديدًا؛ وصاحب المناسبة أصل الزيارة؛ وأهداف الزيارة ومقاصدها؛ وامتدادها الزماني واتساعها المكاني؛ ورسالة الزيارة ودلالاتها وأبعادها؛ ومنتهى الزيارة، أي الارتباط بإمام العصر والزمان عجّل الله فرجه الشريف. وهو علم لا يعنى بحقل علمي واحد، إذ يُعنى بدراسة الإنسان؛ من النواحي الاجتماعية والنفسية والفكرية والثقافية والسياسية والحضارية وغيرها، وتستطيع الزيارة عبرمن خلال ما تمتلكه من الخصائص والسمات التفاعلية والارتباطية، أن تؤمن عملية استخراج الكثير من المعطيات والبيانات الضرورية في عملية تحليل العديد من الظواهر المتولّدة من الزيارة، الظاهرة الأم والأساس. وفي الوقت نفسه، بينما تعكس الزيارة مفهوماتها في المجتمع الزائر على نحو عام، تؤمن خاصية التفاعل لها عملية التغذية الراجعة حتى يعاد إنتاج هذه المفهومات مجددًا من قبل الزائرين في المجتمع الأوسع.

معنى علم اجتماع زيارة الأربعين

يمكن تعريف علم اجتماع الزيارة على نحو موجز بأنّه علم المجتمع الحسيني الممتدّ والمرتبط بالمجتمع المهدوي. وهو العلم الذي يُعنى بعملية تفاعل العوامل الاجتماعية المادية والعوامل الروحية المعنوية التعبوية وآلياتها في بناء الإنسان بالدرجة الأولى والمجتمع الإنساني بالدرجة الثانية. ويفرق عن غيره من العلوم الاجتماعية بما يلحظ من عملية تفاعل داخلية بين الإنسان ونفسه، وليس مجرد التفاعلات الخارجية، إيمانًا بأنّ عملية البناء ذاتية وداخلية قبل أن تصبح خارجية؛ بمعنى أن المجتمعات لا يمكن أن تبنى دون بناء عناصرها.

عندما سعى عالم الاجتماع ماكس فيبر (١٨٦٤-١٩٢٠) كغيره من العلماء إلى فهم التغيرات الطارئة على المجتمعات الحديثة، تمايز من غيره بأنه انطلق من قدرة الفرد على التأثير في العالم الخارجي، بطريقة مغايرة لمن سبقه من قبيل إميل دوركهايم (١٨٥٨-١٩١٧) وكارل ماركس (١٨١٨-١٨٨٣)، لكنه درس القوة التفاعلية بين الطرفين بوصفها فعلا اجتماعيا وقصديا (غيدنز، ٢٠٠١، صفحة ٧٣)، أي: إنّ تفاعل النفس الداخلي مع الروح، أي تفاعل الجانب الروحي داخل الإنسان وتأثيراته في الخارج لم يتم لحاظها. فإذا كانت فروع العلوم الاجتماعية، تنظر العلاقة التفاعلية بين شخصين وأكثر على اختلاف جهة انطلاق التأثير أو الكيفية، فإن علم اجتماع الزيارة لا يمكن أن يتجاوز عملية التفاعل داخل الإنسان بين بعديه المادي والروحي. وهذه الحالة التفاعلية تتجسّد من خلال الممارسات العبادية وإحياء الشعائر، وترتبط بالقلب والروح ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى

الْقُلُوبِ﴾ (الحج،٣٢) وتعود بالنفع على كلا الروح والجسد، سواء ظهرت المنفعة للعلن واتضحت، أو بقيت مجهولة في طيّ الغيب، أو مؤجّلة.

بهذا المعنى يدرس علم اجتماع الزيارة العلاقة بين مختلف عناصره الفاعلة بوصفه حالة امتداد للعلاقة التفاعلية ما بين الفرد المخلوق وخالقه. هو العلم الذي يحاول فهم الظاهرة الإيمانية وانعكاساتها وتأثيراتها من خلال ربطها بالمحددات الاجتماعية. فهو يعمل على فحص الروابط بين الإيمان والمجتمع؛ بين الهياكل الاجتماعية والهياكل الإيمانية؛ بين السلوك الاجتماعي والسلوك الإيماني. ويمكن القول بأنّه الجسر المتصل بين علم الاجتماع وعلم الزيارة حيث تنسجم المؤشرات والعلامات الإيمانية مع تلك الاجتماعية إذ لا هوامش فوارق بين النوعين في المنظومة الإسلامية.

إنّ الدين الإسلامي يريد للإنسان أن يحيا حياته المجتمعية بطريقة سويّة متزنة لا انفصام فيها، لذلك جاءت المنظومة القيمية والمفهوماتية التي يقدّمها النبي الأكرم محمد وأهل بيته ﷺ تلبّي احتياجات المجتمع لتناسبِها مع الفطرة الأصيلة ومتطلبات النفس في بعديها المادي والمعنوي، ناهيك عن الرؤية المنظّمة لمسيرة الإنسان نحو التكامل وخلافة الله.

وهذه المنظومة التي تسهم في عملية بناء خليفة الله على الأرض ليست سوى المنظومة الإيمانية التي ينتمي إليها زائر الأربعين فكرًا وعقيدة وعملًا إذ تشكّل الزيارة ساحة تفاعل وانعكاس عملي لمختلف القيم والمبادئ الإيمانية والأخلاقية الضرورية في كيفية التعامل مع الآخرين، والتصرف في مختلف المواقف. ومن ثمّ، تعمل الزيارة ذاتها على إعادة إنتاج هذه المفهومات وصقلها في الزائر بوصفها ذخرا

يستفيد منه في كل العام. وبناء عليه، تصبح الزيارة ساحة تفاعلية تتجاوز المكان والزمان الخاص بالزيارة، لتأثيراتها البعيدة المدى والقادرة على تربية النفس وبناء الشخصية الإيمانية الواعية المرتبطة بصاحب المناسبة بوصفه قدوة تسعى إلى انتهاج فكره وخطه ورسالته.

مجالات علم اجتماع زيارة الأربعين

يركّز علم اجتماع زيارة الأربعين على دراسة النظم التي تسهم في بناء الشخصية التي حازت فضل زيارة الأربعين، والعلاقة المتبادلة بين المجتمع والمفهومات التي تدعو إليها الزيارة وتعمل على إحيائها وتعزيزها في النفوس. ويهتم بفهم وظائف مؤسسات التنشئة الاجتماعية والدينية ودورها في صقل مفهومات الزيارة وقيمها، ويعمل على تفسير الظواهر السلوكية المختلفة، وفهم عواملها وتطوير آليات إعادة إنتاج القيم الحسينية مع تقادم الزمن، وفهم الانتشار أو الامتداد القيمي لهوية الزيارة الأربعينية، أي الثورة الحسينية، وشموليتها الإنسانية العابرة للطوائف والمذاهب الدينية.

وإنّ من موارد الاهتمامات المركزية الأخرى هي مفهومات الزيارة الأربعينية بانعكاساتها وتطبيقاتها العملية في حياة الإنسان وتفاعله مع الآخرين في عملية تكامل المجتمع، حتى تتحوّل هذه المفهومات من أخلاق وفضائل وقيم ومبادئ وصفات حسنة إلى نمط حياة يرسم الحركة التفاعلية للمجتمع في كل السنة، بل أكثر من ذلك يسهم في تأمين عمليات التكيّف والاستجابة الضرورية لدى الفواعل والقدرة على تحديد الدور والتكليف في مواجهة أي موقف بطريقة متزنة وواعية.

يغطي مجالات علم زيارة الأربعين أسلوب حياة الآخرين؛ وهؤلاء منهم مسلمون من فرق مختلفة من دول مختلفة، ومنهم المؤمنون الإثني عشرية، ومنهم من الديانات

الأخرى، وبتصنيف أعمق: هؤلاء هم أبناؤنا ونساؤنا ورجالنا وشبابنا وفتياتنا ممن تقع عليه مسؤولية بناء المجتمع المهدوي والتأهيل والاستعداد. من هنا، وانطلاقًا من مسؤولية أهل العلم والدين والبحث والتحقيق في التوجيه والرعاية تصبح عملية فهم الأسلوب والوعي بالعالم من حولنا من وجهة نظر غير ما لدينا بمنزلة الواجب الأخلاقي للوقوف على المشكلات والقدرة على وضع السياسات العملية الصحيحة. هذه التغطية الواسعة تقدم مساعدة عملية في تقييم عدة مبادرات وسياسات ودراسة عدة من نتائج قد تدفع باتجاه إعادة الحسابات وترميم الهياكل القائمة أو تجديدها أو تعزيزها. كذلك، يزوّد علم الزيارة معرفة أعمق بالنفس والبواعث الكامنة وراء أفعالنا وأساليب عمل المجتمع الذي نعيش به بما يعزّز المقدرة على التأثير. وهو ما يصبّ في صميم خدمة المجتمع المهدوي المنتظر لدولة الحق والعدل.

نشأة علم اجتماع الزيارة وتطوّره

تحتاج دراسة نشأة علم اجتماع الزيارة إلى المنهج التاريخي بشقّه التحليلي الذي يعني قراءة التاريخ من زاوية علم الاجتماع، أي بوصفه فاعلا ديناميكيا غير جامد، وتناول الآثار والتأثيرات العملية لحدث الزيارة في المجتمع سواء على المستوى الديني أو السياسي. إن الاعتماد على التاريخ بوصفه مادة للتحليل النوعي، يوفّر قراءة تحليلية معمّقة للمراحل التاريخية المرتبطة بنشأة الزيارة الأربعينية التشريعية والممارسة العملية وتطوّرها من خلال المدد الزمنية المختلفة، بالاستفادة من الكتب والموسوعات التاريخية الخاصة بالزيارات الأربعينية يرفد هذا المنهج التاريخي التحليلي عملية تأصيل العلم بمقوّمات مفهومات الزيارة عبر من خلال التاريخ _بعد تعيينها طبعًا مع الأخذ بالحسبان خصوصية كل مرحلة_ وكيفية نضجها والمحدّدات التي أسهمت في تبلور ملامح نشأة علم اجتماع الزيارة.

ونموذج أولي لذلك، ترتبط المراحل التاريخية الأولى من زيارة الإمام الحسين في الأربعين بمفهومات القهر السياسي والاستبداد وبطش السلطة الحاكمة، وقد ترافقت مع مفهوم التحدي الذي انتهجه المؤمنون من شيعة أهل البيت، ودفعوا حياتهم ثمنًا للزيارة. وإذ استمرت هذه السمات نسبيًّا على اختلاف شدتها على وفق طبيعة السلطة الحاكمة، كانت مفهومات التحدّي والتضحية تنضج مع الزمن. وقد شهد العقد الماضي أعلى معاني الفداء والارتباط بالولاية من جهة، وبالمرجعية من جهة ثانية؛ ما كشف عن خطوة رائدة في التطوّر الفكري والسياسي ترجمته فتوى المرجعية الرشيدة، فتوى «الجهاد الكفائي» التي أطلقتها المرجعية الدينية العليا في العراق المتمثّلة بالسيد علي الحسيني السيستاني في حزيران العام ٢٠١٤، بغية مواجهة التيار التكفيري من إرهابيي تنظيم «داعش» وحماية المراقد المقدسة.

لقد جسّدت مسيرة «المشاية» خلال الزيارة الأربعينية من النجف الأشرف إلى كربلاء، ذروة الاستجابة ضد التهديدات، وقد تعزّزت وترسّخت معلما بارزا في التحدّي السياسي والانتماء الديني. وفي أحدث مراحل تطوّر المفهوم، لابد من الإشارة إلى دور الوسائط الاجتماعية والوسائل الإعلامية وتأثيراتها المختلفة وقابليات استثمارها التي لا يمكن تجاوزها، إذ كسرت الزيارة الأربعينية الحدود «الزمكانية». وتشير هذه المرحلة الزمنية الأخيرة إلى تقدم ملحوظ في عملية التطوّر على صعيد مختلف التفاعلات مع الزيارة على المستويات كافة.

مقاربات علم اجتماع الزيارة الأربعينية

تعرّف المقاربة بأنها التصوّر النظري الأساس في بناء الموضوع المجتمعي الذي تقوم عليه الدراسة وتتقوّم به. وتضم مجموعة المبادئ التي يتم اعتمادها في تفسير الظواهر أو

المشكلات الاجتماعية المراد دراستها، في محاولة للوصول إلى قوانين تنظيمها وآليات اشتغالها وأشكال تطورها والتأثيرات التي تحدثها (بوابة علم الاجتماع، ٢٠١٩). تتوزّع المقاربات في علم الاجتماع على وفق المنهج الغربي ما بين أربعة اتجاهات: الموضوعية (Objectivism)؛ والذاتية (Subjectivism)؛ والبنيوية (Structuralism)؛ والسوسيومترية .(Sociometry) وتختلف التصورات النظرية لدى أنصار كل اتجاه فيعتمدون على أسس وركائز مختلفة في تحديد النظرة للموضوع وكيفية فهمه وتعيين تحديداته ورسم معالمه النظرية (إبراهيم، ٢٠١٠، الصفحات ٦٧-٧٥).

إنّ تحديد المقاربات أو النظريات في دراسة علم اجتماع الزيارة، يحتاج إلى التدقيق والبحث المتأني في فعالية هذه التصورات أو مدى اعتمادها وفي اختيار المناسب منها مع موضوع الدراسة. ويتطلّب تبيئتها مع الموضوع في حال اعتمادها بما تزوّد معه علم اجتماع الزيارة بآليات الترابط وأسبابه، وتعمل على شرح الجانب السوسيولوجي فيه، وتصف العمليات الاجتماعية في مختلف جوانب المجتمع، بما في ذلك العلاقات الارتباطية والسببية والتفهمية بين الأفراد والمؤسسات والهياكل والبنى. وبمعزل عن النظرية المعتمدة، تشكّل الأبعاد أو العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والمعنوية ركيزة تحديد مقاربات علم اجتماع الزيارة أو النظريات التي تتمحور حولها عملية دراسة تطوّر التفاعل في الزيارة الأربعينية.

ويطرح تعيين النظريات في دراسة علم الاجتماع الإشكال التالي: هل يتم اعتماد النظريات الغربية التي نشأت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في المجتمعات الأوروبية من قبيل النظرية البنائية والوظيفية والسوسيولوجية والاجتماعية والصراع والتغير الاجتماعي وغيرها أم يصار إلى إنشاء «براديغم» أو هيكل معرفي

جديد وخاص بالموضوع والمكان؟ وعليه، هل يتم الاستفادة من البراديغم العلمي التراكمي بطريقة واعية غير عشوائية في هضم المناسب من المعارف المبنية، وعندئذٍ ما التحديات الماثلة وكيف السبيل إلى تجاوزها؟ أو هل يؤخذ بمقولة: إن العلم هو عصارة تراكمية، لا يحتاج الإنسان إلى الهدم والبناء من جديد، بمقدار ما هو قادر على اختيار المناسب من الأسس للانطلاق منها؟

كلٌّ من المقاربات الغربية استندت إلى رؤيتها الخاصة في دراسة التحوّلات المستجدة في المجتمعات الغربية بعد الثورة الصناعية في أوروبا، ولكن هل تنطبق هذه على دراسة المجتمعات الإسلامية وموضوع الدراسة على حساسيته؟ الورقة ليست بصدد الحسم في الإجابة، لكن هناك الكثير من الأسس التي يمكن عليها مقاربة المنظورات التصورية لعلم اجتماع زيارة الأربعين، الأسس التي تنطلق من البيئة الإسلامية، وبيئة الزيارة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر، التكامل. لطالما نظرت الطروحات الغربية إلى الصراع من خلال التاريخ والاختلالات، فسعت لدراستها وتفسير الوقائع بناء عليها. والصراع هو نتاج التطبيق الخاطئ في مسيرة الإنسان، في حين يطرح الدين الإسلامي مفهومات القوة والتعاضد والتكاتف والإخوة وشد الأواصر واللحمة ويؤكدها سواء في القرآن أو في سنّة رسول الله وأهل بيته الأطهار صلوات الله عليهم وسلامه. أما التكامل فهو التكامل الأفقي والعمودي في النفس والفرد والمجتمع، وهو الأصل في الخليقة والهدف منها. وهذا مبحث قائم بحد ذاته، ليس محله هذا البحث.

ويمكن أن تسهم الإطلالة ولو بإيجاز على أبعاد الزيارة وعواملها بالإضاءة لمفهوم التكامل بما يسمح لاحقًا لدراسة إمكان طرح نظرية «التكامل الاجتماعي» بدلًا من الصراع والتغير الاجتماعي. قد يتبادر سؤال حول التقارب بين «التكامل»

ونظرية البنائية الوظيفية حيث يعمل الجميع لاستعادة التوازن بعد تعرّض المجتمع لحالة من عدم الاستقرار. وهنا، يمكن أن يشار إلى فارق جوهري، وهو أن الأولى تتجاوز التكامل الوظيفي إلى التكامل الروحي والمعنوي فضلًا عن المادي.

العوامل الاجتماعية

يقصد بها مجموعة من الظروف المحيطة والحالات المؤثرة في كينونة الزائر ونمط حياته. إنها كل ما يؤثر في تكوين شخصية الزائر الحسيني وحياته الاجتماعية وسلوكياته، منها العامل الأسري؛ والمستوى التعليمي؛ والوضع الاقتصادي؛ والتقاليد الثقافية والعادات؛ ونوع الجنس؛ وظروف البيئة التي يعيش فيها؛ والدين والعرق؛ وغيرها من العوامل التي تساعد في دراسة تفاعل الزائر مع الزيارة والزوار.

العوامل الروحية والنفسية

تستخرج الملكات الأخلاقية والصفات النفسية الكامنة، وتكشف عمليًّا عن المستوى الأخلاقي ودرجته، سواء في السفر أو في درب المشاية والتعامل مع الآخرين وتدارك المواقف. ومن هذه المعطيات الأخلاقية: الصبر والتواضع والإيثار والتضحية بالمال والوقت وبذل الجهد وخدمة الآخرين وتقديم المساعدة، والتعاون، والعفة، والعفو، والحلم، والأدب واحترام حرمات الطريق وغيرها من المعاني الفاضلة، والوفاء بالعهود سواء مع الله تعالى وأهل بيته الأطهار أو مع النفس والآخرين. وتعد هذه الكمالات من أفضل العبادات التي تكشف عن رقيّ نفس الإنسان وتؤهلها للتضحية العظمى من أجل المبادئ والقيم السامية وتسهم في تربية النفس وترويضها لتكون لائقة بحمل أبعاد القضية الحسينية، والاقتداء بها، وتولّد

حالة من التفاعل الروحيّ والنفسيّ بما يؤدّي إلى إيقاظ أسمى معاني الخُلُق الرفيع.

العوامل الثقافية

ويقصد بالعوامل الثقافية مجموعة العادات والقيم والمفهومات والاهتمامات والأنماط المعيشية التي تتشاركها مجموعة الزوار الوافدين مع أهل البلاد. ويدرس علم اجتماع الزيارة تفاعل الزائرين المحليين والوافدين مع هذه القيم أثناء الزيارة وانعكاسها في السلوكيات في أيام الزيارة، ويبحث في علاقات التفاعل بين الزيارة وعوامل الاختلاف الثقافي، فضلا عن تأثيرات التنوّع الثقافي على النمط السلوكي أثناء الزيارة، ومدى تأثير التفاعل الثقافي ما بعد الزيارة واتجاهات التأثّر، وكذلك دور كل من الفرد والجماعة في انعكاس الصورة المثلى لرسالة الزيارة، مع تأكيد دور كل مؤسسات التنشئة في التخطيط والتنظيم لاستثمار مخرجات الزيارة بأكثر الطرق قيمة وفاعلية. باختصار، هي كل العوامل التي ترتبط بعملية التفاعل الثقافي المتبادَل.

تزخر الزيارة الأربعينية بغنى مفهوماتي ثقافي يختزن ويختصر مسيرة الإنسان في تفاعله مع الآخرين على خطى بناء المجتمع المتماسك المتراصّ الجهات والأطراف. ويسعى علم اجتماع الزيارة إلى مقاربة مراسم الزيارة بوصفه محرك حياة يكسر جمود القضية الحسينية وتقييدها بالبكاء والحزن دون العِبرة؛ فينظر تطوّر المفهومات الثقافية وعملية تبلور مصاديقها العملية من خلال الارتباط التفاعلي بين الزائر وأهداف الزيارة وتعاليمها وثقافتها في ظل دور مؤثر للمؤسسات التربوية والدينية والحوزة والمدارس والأسرة في التنشئة الاجتماعية ورفد المفهومات القافية وصقلها.

وفي حين تشكّل الزيارة ساحة ثقافية تفاعلية بين مختلف الجموع على تعدد ألوانها ولغاتها وصنوفها ومشاربها، يقارب علم اجتماع الزيارة العديد من العناوين

الثقافية التي يشكّل كلٌّ منها قاموسًا قيميًّا، وفي طليعتها العمل التطوعي؛ والتعايش السلمي والانفتاح على الآخرين؛ والوحدة الإسلامية؛ والتعامل على وفق مبدأ الإنسانية من باب «نظير لك في الدين أو نظير لك في الخلق؛ والبذل والإنفاق في سبيل الله؛ والتعاون بين مختلف الفعاليات الثقافية والدينية والتربوية؛ والوعي بالطاقات وقوة الالتفاف حول القضية الحسينية، وغيرها من القيم التي تجسّد حقيقة المجتمع الإسلامي الأصيل. أما ثقل المقاربة الثقافية، فيقوم على مفهومي انتصار النهج والبصيرة، وقوة الروابط الاجتماعية والأسرية في المجتمع الإسلامي، والقيم الحضارية الجامعة التي تتجاوز حواجز اللغة والعرق والدين والمذهب والقومية.

العوامل السياسية

يدرس علم اجتماع الزيارة الأربعينية، البعد السياسي فيها. وهو بعدٌ تمتدّ جذوره إلى حادثة عاشوراء، وما جسّدته الثورة الحسينية من مفهومات سياسية تنظم علاقة الحاكم بالمحكوم وطبيعة الحكم، وتحدّد حقيقة السلطة التي تمحورت حولها حركة الإمام الحسين، وماهية سمات السلطة التي ثار ضدها. وهي بذلك ترصد امتداد قيم منظومة صراع الحق ضد الباطل التي رسّختها ثورة الطف في مواجهة الظلم والجور ورفض الانكسار والخضوع ونبذ الخنوع وسلب الكرامات. وتعمل في المقابل على صقل مفهومات نصرة العدل والحق في عملية الارتباط بالإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف.

وعليه، يقارب علم اجتماع الزيارة، تفاعل الشعوب مع هوية الأمة التي رفع الإمام الحسين ﷺ لواءها؛ الهوية العابرة للدين والمذهب نحو فضاء الإنسانية، فتحاكي فطرة الروح في طلب التحرّر ورفض العبودية والذلّ. إن المحتفى به، ومناسبة الاحتفاء نواة المشروع المقاوم وحركات التحرر في العالم التي استلهمت من ثورة الطف مقارعة الظالمين. وفي كل سنة، تعمل الزيارة الأربعينية على إعادة إحياء أهداف الثورة الحسينية في الإصلاح والاستنهاض ورفض الهيمنة على أنواعها. هذا، وتشكّل كلمات الإمام القصار وخطبه في عاشوراء، مادة جوهرية في تأصيل المقاربة السياسية لعلم اجتماع الزيارة، لما تمثّله من رسائل سياسية تاريخية تتجاوز الزمان والمكان في رفض الظلم والجور، وفي تحديد سمات القائد، وصفات الحاكم، وعلاقة الحاكم بالرعية، ونوع السلطة وأشكالها.

العوامل الاقتصادية

يدرس علم اجتماع الزيارة البعد الاقتصادي بوصفه رافعة أساس في مناسبة الزيارة، ويتناول كيفية التفاعل بين الزيارة والزوار لجهة الصرف وبذل الأموال في إحياء هذه المناسبة سواء من قبل أصحاب المواكب وإطعام ملايين الزائرين أو توقف أعمال أهل العراق للتفرّغ للزيارة وخدمة الزوار والصرف من مدخولاتهم الخاصة في إكرام الزوار، أو حتى مفهوم الادخار لدى الزوار سعيًا للزيارة. بهذا المعنى، تحضر مفهومات الإنفاق في سبيل الله وعلى حب أهل البيت ﷺ بوصفها نمطا اقتصاديا في التجارة مع الله. وتستبطن مفهومات أخرى كالتكافل الاجتماعي والتعاون والدعم.

خلاصة ومقترحات

إن الحديث عن شيء جديد غير معلوم يستنفر العداء ضده على نحو تلقائي، فالإنسان عدو ما يجهل، فكيف إذا كان هذا المناط إخراجه إلى العلن والتعريف به بمنزلة إنتاج علمي يتعلّق ببنية معرفية وهياكل ثقافية ومؤسساتية، وأكثر من ذلك ذات هوية وقدسية خاصة؟ إنّ حركة الفكر في مجتمعاتنا الإسلامية والعربية أثقِلت عبر التاريخ بمحدّدات لم نصنعها؛ أسقِطت علينا حتى وسِمنا بالاستهلاك وكأن الإنتاج علينا محرّم. وقد دعا العديد من أهل الاختصاص في العلوم الاجتماعية إلى تبيئة الاختصاص.

واليوم، إذ تتقدّم العتبة الحسينية في هذا المسار وتطلق محور «علم اجتماع الأربعين» في مؤتمر «زيارة الأربعين.. أصالة القيم وعنوان الحضارة»، فهو نتاج المرجعية الفكرية الدينية الشيعية التي تنتمي لفكر إسلامي أصيل عمره ما يزيد على ألف سنة ونصف، يؤكد مع الزمن قابلياته وقدراته في العطاء والدينامية والمرونة والتطور. وقد عملت الورقة في ما سبق على تقديم صياغة أوليّة لعلم اجتماع الزيارة الأربعينية بوضع عنواناته العامة، وتحديد معالمه وملامحه، عسى أن تكون خارطة طريق ولو عامة في عملية بحث جادّة لتأسيس علم اجتماع الزيارة. وهو إطار يشير إلى إمكان أن يشقّ اختصاص «علم اجتماع الزيارة» طريقه إلى النور، وهو حق تمليه قدسية الزيارة بمآثرها التي لا نظير لها في كل العالم. ويستوعب الإطار إسهامات الترميم والردم حتى اكتمال البناء.

تمثل مناسبة زيارة الأربعين مؤتمرًا عالميًّا متعدد الأبعاد، وعابرًا للقيود اللغوية والعرقية والدينية. وهو ما يشهد له العالم بأكمله وليس الإسلامي فقط أو الشيعي

حصرًا، ما يزيد من حجم المسؤولية على عاتق العلماء وأهل الفكر والعلم والإعلام والثقافة بضرورة نقل حقيقة وماهية الزيارة أولًا، ونقلها كما ينبغي ثانيًا، ورفع مستوى التوقعات والنتائج على مختلف المستويات بما يليق بجوهر هذه الزيارة. اليوم، ومع ما تشهده مجتمعاتنا من «توحّش» في معركة استلاب الوعي وتغييبه، تبرز الحاجة أكثر فأكثر إلى اللجوء إلى سفينة الإمام الحسين عليه السلام للنجاة، والنهل من علوم النموذج والقدوة في معركة الوعي من باب الاستجابة للتحديات العصرية أمام شبابنا ونسائنا وأطفالنا ومجتمعاتنا.

ومن هنا، تتزايد الحاجة إلى «علم اجتماع الزيارة» بغية صقل دور المناسبة الكبير في نضج عملية بناء الإنسان والمجتمع الإنساني الذي لا يختلف عن المجتمع المهدوي المنشود والمؤهل لاستقبال إمام الزمان الغائب، الإمام المهدي المنتظر عجل الله فرجه الشريف. يؤمَّل أن يرصد «علم اجتماع الزيارة» التطلعات والتوقعات، ويعمل على ردم الثغرات ويحاكي النظرة التقدمية في الاستثمار لفاعيل الزيارة، وأن يسهم في عملية التخطيط الضرورية بين مختلف الفعاليات التنموية، وعلى مختلف الصعد المحلية والخارجية لاستخراج الحد الأقصى الممكن من آثار الزيارة، وإمكانات الزوار. وعلى أمل أن تأخذ هذه البرامج التخطيطية بالحسبان الحاجات والدوافع والقدرات والموارد وقابلية التحقق مع تأكيد أهمية تفعيل الجانب الإبداعي لدى شريحة الشباب، سواء في خطوات الاستطلاع أو التخطيط.

التوصيات

١. تأكيد ضرورة تبيئة أسس علم «اجتماع الأربعين» من صميم الفكر الذي ينتمي إليه، والواقع الذي يجسّده، والرسالة التي يحملها، بعيدًا من إسقاطات النسخة الغربية في علم الاجتماع.

٢. العمل على تفعيل حركة البحث العلمي في مختلف المجالات وتعدّد المقاربات ومن مختلف الزوايا والأبعاد بما يدفع باتجاه بلورة علم اجتماع الزيارة ونضج عملية بناء المفهومات، ورصد مسار تطوّرها واتجاهاته.

٣. الاستفادة من مختلف الخبرات في مجال العلوم الإنسانية، ولاسيّما الاجتماعية، للتباحث في التفاصيل الدقيقة لإطار علم اجتماع الأربعين، وذلك من خلال إقامة الندوات والمحاضرات النقاشية بين أهل الاختصاص.

٤. الدعوة إلى مؤتمر خاص بعلم اجتماع الأربعين، تتوزّع محاوره على إسهامات هذه الورقة المتواضعة فضلا عن خلاصات مجموعة من الندوات العلمية التمهيدية. هكذا، يفسح المؤتمر المجال للتعمّق في كل عنوان ورد في هذه الورقة فيكون محورًا قائمًا بذاته، ما يغني الطرح ويرفده بمختلف الإسهامات العلمية القيّمة.

٥. التنسيق مع المنظمات الأكاديمية العالمية والدولية المتخصّصة بالعلوم الاجتماعية لتسهيل تبادل النشر العلمي في موضوعات علم «اجتماع الأربعين».

٦. رفع مستوى التعاون مع المراكز العلمية، الأجنبية والعربية، المتخصّصة بالعلوم الاجتماعية وتنظيم الحلقات النقاشية والدراسية والملاحظات المباشرة من خلال المشاركة بغية تعزيز عملية استحداث علم «اجتماع الأربعين» وتطويره على وفق المعايير العلمية مع الحفاظ على الهوية الأصيلة له.

٧. تنظيم حركة إعلامية تواكب الحركة الفكرية التي تعمل على إطلاق نشأة هذا الاختصاص.

٨. إطلاق مجموعة من الأنشطة البحثية الإبداعية بما تتيح أكبر مشاركة ممكنة وأكثرها استثمارًا وفائدة، ولاسيّما من قِبل شريحة الشباب؛ محور القوة الاجتماعية لما يختزن هؤلاء من طاقات وأفكار قيد الاستقطاب في صناعة المجتمع الحسيني المهدوي.

٩. تأكيد ضرورة السير قدمًا بمشروع تأصيل علم اجتماع الزيارة لما يمكن أن يوفّر ذلك من إسهامات جمّة من خلال استثمار ناتج تفاعل الشباب مع الزيارة في تفعيل قوة الطاقة الشبابية بطريقة موجّهة رشيدة، وتأمين الحصانة اللازمة في مواجهة المشاريع التغريبية التي تعمل على استلاب الشباب من البيئة المؤمنة تحت عنوانات التحديث ومجاراة العلوم العصرية، ولاسيما في مواقع التواصل الاجتماعي.

المصادر والمراجع

- المصادر
- القرآن الكريم.
- المراجع
- الكتب والمؤلفات

١. أنتوني غيدنز. (٢٠٠١). علم الاجتماع (مع مدخلات عربية). ترجمة وتقديم فايز الصُيّاغ. بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ط٤.

٢. إنزو باتشي و سابيو أكوافيفا. (٢٠١١). علم الاجتماع الديني الإشكالات والسياقات. ترجمة عز الدين عناية. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، كلمة، ط١.

٣. سيرج بوغام. (٢٠١٢). ممارسة علم الاجتماع. ترجمة منير السعيداني. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط١.

٤. عبدالله إبراهيم. (٢٠١٠). علم الاجتماع (السوسيولوجيا). بيروت: المركز الثقافي العربي، ط ٣.

٥. عبد الهادي الجوهري. (١٩٨٠). مدخل لدراسة المجتمع. القاهرة: مكتبة نهضة

الشرق، (لا ط.).

٦. محمد عبد الرضا هادي الساعدي. (٢٠١٨). زيارة الأربعين المباركة دلالات وآفاق: خطوات في التنمية البشرية والتخطيط الإستراتيجي لحقول الزيارة. العراق: مركز كربلاء للدراسات والبحوث، ط ١.

٧. مصطفى الخشاب. (١٩٧٤). دراسة المجتمع. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، (لا ط.).

٢. المواقع الإلكترونية

- William H. Swatos .(1998). Encyclopedia of Religion and Society. London: Altamira Press, SAGE Publication. Available on:
- https://hirr.hartsem.edu/ency/index.html
- Open Stax. (2017). Introduction To Sociology, Texas: Rice University,2nd edition.